دادا بابا

السقف عالٍ وبعيد جداً جداً. مقبض الباب مرتفع. النوافذ عالية ومتخلِّفة. المقاعد كبيرة علينا، والطاولات مرتفعه وقريبة من وجوهنا. رائحة المحايات وأقلام الرصاص المبرية جيداً تملأ أنوفنا، وأبصارنا موجهة إلى الأمام والأعلى حيث السبورة التي كتب عليها: دادا بابا. إننا في الصف الأول الابتدائي. أرجوك اصمت تماماً وتوقف عن جذب ضفيرة صديقتك. وأنتِ توقفي عن القهقهة تماماً واستمعي إلى المدرسة.. أعرف أن أنفها مضحك قليلاً ولكن أمي تقول إننا لا ينبغي أن نضحك على أنوف الناس. فقط اصمتوا جميعاً ولنستمع إليها. إنها لا تعلمنا القراءة والكتابة فقط. إنها تعلمنا أشياء كثيرة.. سنضحك عليها كثيراً في المستقبل...

هل اكتشفتها لنفسك أيها الصغير؟ آسفة جداً.. أعني قارئي العزيز (الذي كان في أحد الأيام صغيراً)، أعني.. لا بد أنك اكتشفت أن الدنيا تسير نوعاً ما عكس اتجاه التربية والتعليم. كلنا خرجنا إلى الدنيا لنرى أن من كانوا يجلسون في الخلف ويشاغبون ويتحايلون على المدرسين ويهملون في واجباتهم هم الذين يسّيرون الدنيا الآن بأساليبهم اللولبية الخاصة. يا إلهي كيف حدث ذلك؟ كيف استطاعوا أن يقبضوا على زمام الدنيا وهم قلة؟ لقد كانوا قلة حقاً فكيف تمكنوا من ذلك؟ كيف أصبحوا هم "الواقع" الذي يجب أن نلوي قناعاتنا من أجله؟

لماذا تضيع الأمانة ويسود مبدأ الانتهازية؟ لماذا يرفع الجميع شعار الكفاءة ثم يتوسط الجميع من أجل أن يقفزوا بأحدهم على قانون الكفاءة؟ وإذا نطقت بحرف اتهمت بستمائة ألف تهمة منها أنك لا ترى ما يحدث في كل مكان، وقد تشتمُّ تلميحاً بأنك ما زلت تتهجى في الحياة: دادا، بابا.

لماذا يفترض الجميع أنك يجب أن تكذب وتتظاهر بأنك تقبل كل شيء وأنت لا تستطيع قبول كل شيء حقاً، فإذا استمعت لمنطقك وحاججت الرؤساء عِيبَ عليك أنك لا تعرف كيف تسوّق نفسك.. أي أنك ما زلت تتهجى..دادا.. بابا.

لماذا نراهم يهزون رؤوسهم قبولاً ويصفقون حتى تحمر أيديهم مؤيدين لما يسمعونه في المحاضرات والمسرحيات حول المبادئ التي أصبحت تدوسها الأقدام ثم يخرجون فيجعلون هذه

المبادئ تحت أقدامهم، ولا يدوسونها فقط بل ويرقصون على جثتها. إنه الواقع! الواقع أيها الحالم! ألا تفهم أننا تجاوزنا دادا بابا؟

هل يعقل أن المشاغبين كانوا بهذا الكم الهائل حتى سرى تأثيرهم على ثلاثة أرباع المجتمع تقريباً ونحن لا نعلم؟ لقد كنا نجلس في المقاعد الأمامية وكنا نظن أن هناك صفاً واحداً من المقاعد الخلفية يحتله بضعة فاسدين، فإذا بهم جيوش جرارة.

أو هل كان السبب في فوزهم بالدنيا أن الفعل أقوى من عدم الفعل ومن ثم فإن أثر الشغب أقوى كثيراً من أثر عدم التصرف حياله، لذلك ساد قانون إخواننا المشاغبين وقضى على كل القوانين؟

نعم، لقد كانوا قلائل فعلاً ولكن يبدو أن ما بين المقاعد الأمامية والخلفية صفوفاً كثيرة من المقاعد تتبع أسلوب السكوت الذهبي وإفساح الطريق للمشاغبين لاغتنام البعد عنهم، وبصمتها فازت المقاعد الخلفية على الأمامية فوزاً كاسحاً، وأخذ الحكَم يعدّ حتى وصل إلى المائة والأخلاق الحميدة ما تزال مطروحةً أرضاً، وعند رأسها تقف الأخلاق غير الحميدة، وهي ترفع ذراعيها مبرزة عضلاتها المنتفخة اللامعة إذ تحيّي الجمهور.

الغريب في الموضوع أنه حتى الذين كانوا يجلسون معك في الصفوف الأمامية معظمهم أصبح يتحدث عن ضرورة أن تصبح واقعياً (أي أن تقبل وتشارك في كل الأوضاع غير الصحيحة). وهكذا يأتي عليك حينٌ من الدهر تشعر فيه أن الجميع تخرجوا من المدارس وبقيت أنت وحدك في صف أول/٢ وقد امتلأ أنفك برائحة الممحاة وقلم الرصاص المبري جيداً وأنت تردد: دادا! بابا! ماما!

دعد خليفة

كتب هذا المقال عام ٢٠٠٢ لجريدة الراية